ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل ممتنعاً عن أن يكون الأمن في انتظام
الدنيا قاعدة كالعدل فإذا كان ذلك كذلك فالأمن المطلق ما عم
والخوف قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه بأن يكون تارة على النفس
وتارة على الأهل وتارة على المال وعمومه أن يستوعب جميع
الأحوال فلكل واحدة من أنواعه حظ من الوهن ونصيب من الخوف
وقد يختلف باختلاف أسبابه ويتفاضل بتباين جناياته ويكون بحسب
اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن أجل ذلك يجب أن نصف
حال كل واحد من أنواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن ولا
سيما الخائف على الشيء مختص الهم به منصرف الفكرة عن غيره وهو
يظن أن لا خوف إلا إياه ويغفل عن قدر النعمة بالأمن فيما سواه
فصار كالمريض الذي هو بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ولعل
ما صرف عنه أعظم مما بلي به وإنما يوكل بالأدنى وإن جل ما يمضي
حكي أن رجلاً قال لأعرابي حاضر ما أشد وجع الضرس فقال
الأعرابي كل داء أشد داء وكذلك من غره الأمن كمن استولت
عليه العافية فهو لا يعرف قدر النعمة بأمنه حتى يخاف كما لا يعرف
المعافى قدر النعمة بعافيته حتى يصاب وقال بعض الحكماء إنما
تعرف النعمة بمقاساة ضدها فأخذ ذلك أبو تمام الطائي فقال

والحادثات وإن أصابك بؤسها ... فهو الذي أنباك كيف نعيمها

فالأولى بالعاقل أن يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما
سوى ذلك من عافيته وأمنه وما انصرف عنه مما هو أشد من مرضه

وخوفه

ليستبدل بالشكوى شكراً وبالجزع صبراً فيكون مسروراً فرحاً حكي
أن يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه أي شيء كان خبرك
بعدي قال لا تسألني عما فعله بي إخوتي سلني عما صنعه بي ربي
وقد قال الشاعر

لا تنس في الصحة أيام السقم ... فإن عقبى تارك الحزم الندم

وأما القاعدة الخامسة فهي خصب دارّ
يتسع به الأحوال ويشترك فيه ذوو الإكثار والإقلال فيقل
في الناس الحسد وينتفي عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس في
التوسع ويكثر المواساة والتواصل وذلك من أقوى الدواعي في صلاح
الدنيا وانتظام أحوالها ولأن الخصب يؤول إلى الغنى والغنى يحدث
الأمانة والسخاء كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى
الأشعري لا تستقضين إلا ذا حسب ومال فإن ذا الحسب يخاف
العواقب وذا المال لا يرغب في مال غيره وقال بعض السلف إني
وجدت خير الدنيا والآخرة في خصلتين فخير الدنيا والآخرة
في التقى والغنى وشر الدنيا والآخرة في الفجور والفقر وقال بعض الشعراء

ولم أر بعد الدين خيراً من الغنى ... ولم أر بعد الكفر شراً من الفقر

وبحسب الغنى يكون إقلال البخيل وعطاؤه وإكثار الجواد
وسخاؤه كما قال دعبل

لئن كنت لا تولي يداً دون إمرة ... فلست بمولٍ نائلاً آخر الدهر
وأي إناء لم يفض عند ملئه ... وأي بخيل لم ينل ساعة الوفر

Copyright © King Saud University